السيدة غريغوري

للأستاذ نجاتي صدقي

قال لي أحد معارفي ذات يوم : أذكر أنني قرأت لك منذ سنة تقريباً قصة بعنوان (الأب غريغوري)(١) وقد ختمتها بأن (كلاره) كانت تذهب كل يوم أحد إلى مقبرة صهيون بالقدس لتبكي القسيس الراحل . .

قلت — نعم ... وهل من عيب في هذه الخاتمة ؟

قال — كلا ..

قلت — إذن ما هي رغبتك ؟

قال — أتشوق إلى معرفة مصير هذه السيدة . وهل هي باقية على قيد الحياة ؟ . وهل تزوجت أم لا تزال على عهدها الذي قطعته لزوجها الشيخ وهو على أبواب الأبدية ؟ .

قلت — أتريد أن أضع ملحقاً للقصة ؟ .

قال — كلا ، ولكني أحس برغبة ملحة في معرفة ما تم لهذه السيدة التي وصفتها بأنها السحر الحلال ، والأنوثة المغرية

قلت — لا تزال السيدة غريغوري مقيمة على عهدها ألا تتزوج أحداً بعد الأب غريغوري ، فتمثاله ما فتيء معلقاً في صدر غرفتها ، وصورة السيد المسيح لم تتزحزح عن مكانها منذ خمس سنوات ، وقنديل الزيت يواصل إضاءة أيقونة العذراء ليلا ونهاراً . أما خطاب السيدة غريغوري فكثيرون ، وأعرف منهم أربعة ، وإليك قصصهم :

الخاطب المثال :

جاءها في بادىء الأمر مثال وقال لها : أتسمحين أيتها السيدة أن أصنع تمثالا نصفياً لزوجك الراحل ؟

فأظهرت كلاره ارتياحها لهذا العرض الكريم ، وأذنت له بصنع التمثال ، فصنعه ، وكان أبرز شيء فيه لحية الأب غريغوري ، ونصبته في صدر غرفتها ... ثم قال لها المثال : أتسمحين أن أصنع تمثالا جانبيا (بروفيل) لوجهك الجميل ؟ ... فأبدت ارتياحها وموافقتها ، وأخذت تزوره كل يوم في ستوديو عمله إلى أن تم له صنعه ، وقد ظهرت فيه السيدة غريغوري بوجهها النحيف الكئيب ، وقد تدلى شعرها المشعث على صدغيها ، وكان تمثالا أخاذاً مما حدا بأحد السياح الأمريكيين أن يبتاعه بثمن باهظ .

وقال لها المثال يوماً : أتسمحين لي أن أصنع تمثالا لجسمك بأكمله ليكون مثالا حياً لصنع الخالق جل جلاله ؟ .

قالت — هذا لن يكون . . فالمرحوم الأب غريغوري هو الشخص الوحيد الذي كنت أظهر أمامه كما خلقت ، وكثيراً ما كان يتحسس جسمي كالفريز ويقول : « سبحانك ربي على قدرتك في تكوين الجمال ! » — أما الآن فما قيمة هذا التمثال الذي تود صنعه لي ؟ . . كلا ، دع عنك هذه الفكرة .

قال التمثال وقد ركع على ركبتيه : وهل لفنان مثلي أن يحتفظ بتمثالك الحي لنفسه ؟ ! . . إنك ضرورية لي لأستوحي منك الفن الرفيع ... هاك يدي يا كلاره فلا ترفضيها ، أتوسل إليك . . .

فانهضته كلاره قائلة : لن أتزوج بعد الأب غريغوري أحداً . أما أنت فكفاك فخراً أنك صنعت تمثالا نصفياً للأب غريغوري حاز إعجابي . وصنعت لي تمثالا جانبيا (بروفيل) جاز إعجاب أحد الأمريكيين . وهذا وذاك أحسن دعاية لك كفنان كبير ... فاذهب الآن ترافقك السلامة ، وخير لك ألا تعود إلى بعد هذا اليوم .

الخاطب كاتب العرائض :

أما الخاطب الثاني الذي تردد على السيدة غريغوري فكان أحد كتاب العرائض وهو بن معارف المرحوم زوجها ، فكان يزورها بين حين وآخر معزياً فيحمل لها بعض الهدايا ويجلس صامتاً لا يجرؤ على الأفصاح عما يخالج نفسه نحوها ، خشية أن تصده وتجرح شعوره ، إلا أن عينيه كانتا تتحدثان عن أمر ما .

وفي فجر أحد الأيام اقترب كاتب العرائض خلسة من مسكن السيدة غريغوري وأسقط رسالة في صندوق رسائلها وفر . . ولما التقطتها قرأت فيها ما يلي :

« كلاره !

(١) راجع (الرسالة) العدد ٦٦٢

لدى ما أقوله لك ولكني لم أجرؤ ، حينما كنت أتردد إلى بيتك ، على مفاتحتك بما كنت أفكر فيه من خطط ومشاريع .

والذي كنت أريد أن أبوح به إليك دون مواربة هو أنني أهيم بك يا فتاة أحلامي ... إنني أحببت بك في حياة المرحوم الأب غريغوري ، ثم أحببتك بعد وفاته . كم يؤلمني أن أراك دائماً مطرقة حزينة ... فما الداعي إلى حزنك هذا ؟ وهل تتوقعين أن يعود النفس إلى قيد الحياة ؟ أنسيه كما نسي هو زوجته وابنته من قبلك ! . فكري في مستقبلك وفي شبابك ونضارتك .

كلاوه ! .

أنت وحيدة وأنا وحيد ... فلماذا لا نعمل معاً على إزالة آلام وحدتنا هذه ؟ . . أنا أكسب من عملي شهرياً خمسة عشر جنيهاً ، وأنت تكسبين من عملك شهرياً عشرة جنيهات . فلماذا لا نصير معاً خمسة وعشرين جنيهاً ؟!..

أجيبي أيتها العزيزة ... أجيبي هذا القلب الكسير ... وآمل أن أتلقى ردك بالبريد حتى أتحمل الصدمة ، السارة أو المؤلمة ، برباطة جأش » .

من المخلص لك أبداً

« ... »

وبعد أن قرأت السيدة غريغوري هذه الرسالة ذهبت بنفسها إلى حيث يعمل مرسلها وقالت له : تلقيت رسالتك ، أما جوابي فها كه ... وعركت الرسالة بيديها ، ثم قذفت بها في الهواء ، وانصرفت تاركة كاتب العرائض في حيرة وذهول شديدين .

الخاطب القيصري :

وكان الخاطب الثالث ضابطاً روسياً من ضباط القيصر نيقولا الثاني ، يدعى إيفان بوغاتيرسكي ، وهو رجل في حدود عمر الأب غريغوري تقريباً ، له عينان ناقبتان ، وشاربان طويلان ، ولحية متدلية من الخدين دون الذقن .

فبينما كانت السيدة غريغوري في عصر يوم تجلس إلى جانب النافذة تقلب ما تركه المرحوم زوجها من آثار أدبية ، إذ بباب دارها يقرع قرعاً خفيفاً . ولما فتحته وجدت نفسها أمام ضابط روسي قديم ، يحمل بيد علبة حلوى وباقة زهور ، ويحمل باليد الأخرى قبعته ومنديله ... وبادر السيدة غريغوري قائلاً : إنني أحد أصدقاء المرحوم الأب غريغوري ، وقد اشتركت معه في معركة تانينبرغ سنة ١٩١٨ ، وتذوقنا البؤس معاً في أزقة مونمارتر بباريس سنة ١٩٢٥ ... ورحلنا إلى فلسطين في باخرة واحدة ، فصار هو قسا ، وبقيت أنا أمني النفس بالعودة إلى روسيا .

فاضطربت السيدة غريغوري قليلا ، وأذنت لهذه الشخصية الغامضة بالدخول .

وبعد أن قدم الزائر الزهور وعلبة الحلوى لصاحبة البيت ، أطرق قليلا ، ثم انحدرت دمعة على خده فمسحها بمنديله وقال وهو يتنهد : رحمك الله يا غريغوري ! لقد كنت أعز صديق لي ، ثم قضى علينا أن نفترق ولا مرد لقضاء الله وقدره ... ولكن ثق يا أخي بأنني لن أنساك وستبقى ذكرياتك الطيبة عالقة في خاطري ما حييت .

وساد الغرفة صمت ، ثم قطعه الزائر بمخاطبته السيدة غريغوري قائلاً : بلغني يا سيدتي أن عندك غرفة للإيجار تؤجيرها ، فهل تجدين مانعاً يحول دون تأجيري إياها ؟ ... أنت بحاجة إلى رجل ليدافع عنك ويعينك على تخطي مصاعب الحياة ... أنت بحاجة إلى مال ، وما من ريب في أن معاشك لا يسد بعض نفقاتك . أرجو أن تأذني لي باستئجار غرفة في مسكنك وسأدفع أي مبلغ تطلبينه ، يضاف إلى ذلك أنك ستجدين إلى جانبك من يحدثك باللغة الروسية التي كان يعلمك إياها المرحوم غريغوري .

وساد الغرفة صمت مرة ثانية ... ثم نهضت السيدة غريغوري وأحضرت باقة الزهور وعلبة الحلوى وأعادتهما إلى السيد إيفان قائلة : إذهب وضع هذه الباقة على قبر صديقك إذا كنت توده حقاً ، ووزع هذه الحلوى بين الفقراء ليترحموا على روحه .

وشيعته إلى باب الدار الخارجي ...

الخاطب الفاسي :

أما الخاطب الرابع فكان يهوديا بولونيا صاحب خطة جهنمية ... فقد طرق بيت السيدة غريغوري عصر يوم ورفقته امرأة وفتاة في الثانية عشرة من عمرها ... فاستقبلتهم ربة البيت مرحبة بهم ، وبعد لحظات تهودلت فيها النظرات والابتسامات

استهل الرجل كلامه بأن ترحم على روح المرحوم زوجها ، وذكر محامده ومآثره ، ووصفه بأنه كان مثالا للنزاهة والاخلاص بين الناس ، غير أن الموت الذى اختطف روحه لا يتردد فى اختطاف روح أى إنسان إذا ما حانت ساعته .

ولما قدمت السيدة جريجورى الشاى لضيوفها قال لها الرجل وهو يحرك الملعقة فى قدحه : تجول فى خاطرى فكرة أود عرضها عليك ، وربما تجدين فيها بعض الغرابة أو الجرأة ، ولكنها مبنية على شعور عاطفى ، ولا تتنافى مع ناموس الاجتماع ... أنظرى إلى هذه السيدة فهى زوجتى ، وانظرى إلى هذه الفتاة فهى ابنتى ... إلا أننى غير راض عن حياتى الزوجية هذه ، وقد عقدت النية على أن أطلق زوجتى طلاقاً لا رجعة فيه ، وزوجتى توافقنى على هجرى إياها ، أليس كذلك يا راحيل ؟ ...

فطأطأت راحيل رأسها وأومأت بالإيجاب ...

ثم إن ابنتى سونيا تفضل طلاق أمها على أن يظل سوء التفاهم سائداً فى منزلنا ... أليس كذلك يا سونيا ؟ ...

فطأطأت الفتاة رأسها وأومأت بالإيجاب أيضاً .

وهكذا ترين أيتها السيدة أننى آت لأطلق زوجتى أمامك ، ولأخطبك أمامها وابنتى شاهدة ... وقد انتهجت هذه الخطة لأختصر الطريق ، ولأزيل كل العقبات التى يمكن أن تعترض سبيل زواجنا .

وتناول الرجل جرعة كبيرة من الشاى ، ولعق ما علق على شاربيه من قطرات وتابع حديثه قائلاً : لقد أدركت مقدماً أنك ستقولين لى إنك متزوج ... وإن لك ابنة لا ترضى عن هجرك لأمها ، فقررت أن أحضرها أمامك لأضع النقاط على الحروف كما يقول المثل ... فما أنا إلا الطالب حلال ، وبيتك الجديد فى انتظارك ، والقول الفصل لك .

كانت السيدة جريجورى تستمع إلى كلام هذا الزائر وهى تقرض شفتيها بأسنانها وقد انفعلت انفعالا شديداً ، لكنها تمالكت نفسها وقالت للرجل بهدوء ورزانة أنها غير مستعدة لسماع مثل هذا الهذيان ، ونصحت الرجل أن يبحث من عريس لأبنته وأشارت إليهم بالإنصراف .

٣١٠٢

وقد اتضح للسيدة جريجورى فيما بعد أن هذا الخاطب هو صاحب بيت للدعارة السرية ، وأن زوجته وابنته تمينانه على نصب حباله وشباكه ... وإن « البيت الجديد » الذى كان فى انتظارها ليس إلا بيت الفسق والموبقات .

* * *

قلت لمحدثى — هؤلاء هم الخطاب الأربعة الذين توددوا إلى السيدة جريجورى ، وكانت تصدم الواحد تلو الآخر ... ولعلك ترى فيهم نماذج بشرية مختلفة .

قال — أود سماع كلمة منك تفسر لى سلوك هذه المرأة من نفسها ، وسلوك هؤلاء الخطاب الشاذين منها .

قلت — السيدة جريجورى هذه مشكلة سيكولوجية ، فهى صبية مثقفة ، وفاتنة ، وفيها الشىء الكثير من الجاذبية الجنسية ، عاشرت قسا أكبر من أبيها ومات .

فهل وقعت هى فريسة للأب جريجورى عندما كانت فى حالة من اللاشعور الجنسى ؟ ...

هل ثابت هى إلى رشدها بعد أن مات القس ورأت أنها ارتكبت حماقة بمعاشرتها إياه ، لكنها تكابر وتحاول أن تظهر بمظهر المرأة المخلصة للزوجية المثالية ؟

هل تشعر هى بأنها فشلت فى هذا الزواج الذى أثار حولها الكثير من اللغط وتخشى السقوط مرة ثانية فى زواج مماثل له ؟

هل تتوقع هى زوجاً يكون له من القوة ، والذكاء ، والجمال ، ما يعوض عليها معاشرتها لذلك الرجل الضعيف ، الخامل ، البشع

وأخيراً ما الذى يحدو بها إلى الإحتفاظ حتى يومنا هذا ، بتمثال القس النصفى ، وبصورة المسيح معلقة على الحائط ، وإلى جانبها أيقونة يملوها قنديل زيت مضىء ...

هذه أسئلة محيرة حقاً ...

أما خطابها فقد تكونت عندهم فكرة محدودة عنها ، مصدرها القس الراحل ، وهى أنها تميل إلى معاشرة الكهول والشاذين من الرجال ...